نعيم التكنلوجيا الاتصالية ... فضاء عربي دون هوية

د. كامل القيّم

أكاديمي* وباحث من العراق

*استاذ الاتصال المساعد- جامعة بابل/ عضو مجلس ادارة مركز حمورابي

مقدمة

لا احد يشك أن المتغيرات المسرعة والمتدفقة في العالم العربي تكاد تكون بفورية غير مسبوقة، تلك الفورية في المتغيرات شديدة الانحدار، ولم تكن فقط على مستوى ثورية الشارع العربي وانتصاراته المتوالية على الانظمة اللاصقة منذ عقود، بل يمتد الأمر الى أنّ يغدوا مرجل التغيير، ينفجر بشكل أكثر هولاً في عالمنا المكبل بالمسكوت عنه، والبطيء النسبي، الذي طالنا حينما حدثت صفحات التغيير الكبرى في التسعينيات، وإذا كانت العقلية العربية قد افردت لها وبحكم تصورات ومساند موروثة (كألآنا القومية والتفسير الديني والموروث الملّغم جملة من التبريرات)، والتي لم تصمد طويلاً إزاء حتميات متشابكة ومتصاعدة، عاشها ويعيشها العالم العربي في سنواته الأخيرة، والتي أفرزت وستفرز لنا العديد من المفاجآت على مستوى السياسة والثقافة والاقتصاد والحراك الاجتماعي،

فأن مد التغيير جارف وآخذ في التصاعد وبواقعية سياسية وثقافية أكثر اشراقاً وألح مطلباً، وتعد خريطة تلكم الحتميات ولنقل (الظروف الموضوعية) التي استكانت عنها واوضعتها الأنظمة السائدة في حاضنات المستقبل وبالخط الباهت، وتحت نقش الانحراف الوطني أو القومي، حينما أمتد نوم الشارع العربي بخساراته الزمنية والفكرية على وقود الصراع العربي الإسرائيلي- (آلية تخدير الانظمة لشعوبها)- وملهات الطاقة العربية بكل مواردها وبواباتها الواعدة، بعدما عالجت ذلك الصراع

بالرمز الدعائي والتطبيعي الخانع الذليل، وهو ما جعل اسرائيل واقعاً مُراً وخطراً قائماً وجاثماً حتى على اجيالنا القادمة، ولو نظرنا الى خرائط التغيير التي تجعل من العالم العربي سائر الى أزمة حقيقية في الهوية وترصين ذاته الثقافية، من خلال مؤشرات دخلت على الخط، منها استحكامات أو حتميات، ومنها عوامل طرد وجذب في واقع عربي سريع التغيير، وفي تشتت وعدم ثبات، يصل الى حد التناقض في أحيان كثيرة ، ومن بعض بارقات ونتائج تلك العوامل الآتي:

1 - تصاعد الميل الى الكوكبية (عولمة السياسات Globalization politics)، أيَّ وجهات النظر الكونية في قضايا الشأن السياسي، وشكل الانظمة ونموها وأزماتها. بالشكل الذي تعولمت فيه مصائر وثقافات وخصائص شعوب لصالح أخرى، تحت مسمى (الشأن، والسلم، والأمن، والتأزم، والانفراج، والارهاب الدولي (وهنا اضيفت دولي international)، لتشير الى أن حدود الدولة القومية، قد الغي ليصبح من حصة الأطراف الدولية الكبرى في السير بعجلة التحكم في العالم، (كما في القضية العراقية والسورية والليبية وافغانستان والسودان)، وقد كان الغرب قد أدخل(للشعوب المقهورة) صورة نمطية زائفة، على أن التغيير نحو الديمقراطية، يجب أنّ يأتي بأيَّ ثمن، سواء أكان تدخل عسكري أم استخدام ناعم لبروتوكولات أم لعصف دعائي، وعندئذ سيكون الهدف واضح ومحدد ومبرر تحت شرعية المصلحة الدولية ومحاربة الارهاب وانقاذ الشعوب من كنف الثورية والراديكالية الى العالم المدني، المسرع نحو النمو.. والتحضر.

وقد كان الغرب قد أدخل(للشعوب المقهورة) صورة نمطية زائفة، على أن التغيير نحو الديمقراطية، يجب أنّ يأتي بأيّ ثمن، سواء أكان تدخل عسكري أم استخدام ناعم لبروتوكولات أم لعصف دعائي

ببساطة كانت تلكم الافكار التي عرجت عليها الحكمة السياسية الغربية، على الأقل في السنوات العشر الأخيرة، ولعبت دور الوصاية على العالم، وإعادة هيكلته وتنظيمه وتنظيفه بحسب (هرمية pyramid) مصالح الغرب.

وهكذا كان المنظرون قد عجزوا في إيجاد مخرج من ذلك التناقض اليومي، الذي يُؤشر على وسائل الإعلام- وبالأخص في الدول الناشئة الديمقراطية- إذ في الغالب تُصاب بالوصاية من احد أطراف الصراع أو التدخل الخارجي أو الدول والقوى المحيطة أو الكبرى، هكذا يروي لنا التاريخ الكثير مما عملته وسائل الإعلام، من دور في تفتيت البناء الاجتماعي للمجتمعات السريعة التغيير والمتعددة الاثنيات والأديان والقوميات، كما حدث في استهداف البروباغندا نحو (يوغسلافيا، وأوكرانيا، ◀

وإيران، والصين، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق والسودان... وأخرها العراق وسوريا...)، والقائمة تطول.

2 - الانفجار الهائل في بنى الاتصال والإعلام، الذي تحول وصفه من القرية الكونية الى الشاشة الكونية، بفضل آليات نقل المعلومات الرقمية وتنشيط الاعتمادية، بشكل كلي وحتمي على انسيابها عبر الاقمار الصناعية.

3 - التشبيك netting الدولي على جملة من القضايا، التي لم تعد من مسؤولية الحكومات، بعدما جرى الغاء الحدود الوطنية وتحول مفهوم المواطن(الى مواطن كوني)، وليس بالضرورة تتحكم به هويات المجتمع ومرجعياته.

4 - عدم وجود طبقة سياسية شابة تقود تلك المتغيرات، وتوجد خطاب وتنشئة سياسية محدثة، لبناء واقع عربي خصمه التخلف والتوريث والاتكاء على الماضي.

5 - التراجع الواضح في البنى التحتية للخدمات العامة، وتفشي البطالة والأميتين(التعليمية والتكنلوجية)، بالإضافة الى تصاعد المشكلات الثقافية والاثنية في معظم أوطان الشراكة(*)، في بعض الاقطار العربية (كالعراق ولبنان، والسودان ، ومصر، وسوريا، والبحرين).

6 - تصاعد العمل بالمشروعات الاستثمارية الإعلامية، فالدول العربية تحمل عدداً هائلاً من قوى الإعلام والاتصال، التي تمول بمال عربي أو اجنبي، بقصد الربح والترويج والاعلام، واخذت تلك المشروعات بالتزايد حتى امتدت للمستوى الشخصي(**).

7 - متغير التواصل وبالتالي(التفاعل الاجتماعي interaction public): ففي الوقت الذي تتنامى قوى الاتصال التقني وينشط التفاعل والتجديد المعلوماتي، نشهد ويشهد العالم نوعا من التراجع الاتصالي للوسائل التقليدية، كالحوار واللقاءات الشخصية، مما أضعف بنية المجتمعات الحقيقية في التقارب (الفيزيقي(***)، فيما اتسعت دائرة ثقافة الصورة لتصبح هي البوصلة وادوات الاثارة والتحريك عبر الصور والافلام الرقمية، التي تنتج وتصنع وترسل وتستهلك عبر الحاسوب، ومن ثم الاتساع الى تشبيك وتوسيع مديات التأثير عبر الانترنت وانظمته اللحظية في نقل المعطيات، ففي كل مدة نشهد تطوراً هائلاً على مستوى علاقات التبادل واشكاله تلك، فمن البريد الإلكتروني الى الجات الى الفيس بوك والتويتر ونظام الـ srr، وما الى ذلك .

* - اوطان الشراكة: نقصد به الدول العربية التي تحمل طابع التنوع الديني والاثني، ولها ثقافات متعددة تبعا لذلك.

** - اخذت بعض الشخصيات السياسية وبعض اصحاب رؤوس الاموال، بافتتاح قنوات تلفزيونية وصحف ومحطات راديو، بهدف الترويج أو التأثير في الرأي العام لأهداف متعددة، كما أن القوى السياسية والدينية والحكومية، تمددت في تمويل وادارة تلك المشروعات.

*** - الفيزيقي هنا يأتي للحوار والمجابهة وجها لوجه، وباستخدام علامات ورموز الجسم بكليتها، كالصوت والهيئة والاشارة، ويعد حضور الانسان وجوده جسمه هيئته الحقيقية حضوراً وفعلاً (فيزيقياً) (الباحث)

كل هذا جعل المواطن العربي يتماهى من جمال وهدوء وامكانية، أن يكون سحر التكنلوجيا الرقمية هي الحل، سواء أكان في الهروب من الواقع أم على مستوى الاعتماد والانفتاح والتطوير في التنشئة السياسية أم الثقافية.

8 - تصاعد الاعتمادية الفردية والمجتمعية للمواطن العربي على التلقي الإعلامي، وهناك فئة كبيرة جداً اصابها الإدمان التلفزيوني(*****)، من قبيل التعرض والاستهلاك للرسائل الفضائية.

وفي ظل مشاهد ومتغيرات أخرى على مستوى الاقتصاد والتعليم واتساع وانتشار المعرفة، كانت المجتمع والعلاقة بين تكنولوجيا الإعلام والثقافة والعولمة علاقة وطيدة، فوسائل الإعلام والاتصال هي الناقل الرئيس للثقافة، وهي أدوات معرفية تساعد على دعم المواقف أو التأثير عليها، وتنميط السلوكيات وتعزيزها ونشرها.

والدول الغربية المسيطرة على تكنولوجيا الإعلام والمعلومات، لا تصدر إلينا المعلومات المسموعة منها والمرئية والمقروءة، سعياً وراء المكاسب (المباشرة) حسب، إنما القصد أيضاً التأثير (effect) في الأفكار، وتخريب العقول ومحاولة اقتلاع القيم والتقاليد والعادات من جذورها، واستبدالها بقيم أخرى، والدول النامية معرضة للغزو الثقافي نتيجة تدفق المعلومات المسيسة عليها.

والدول الغربية المسيطرة على تكنولوجيا الإعلام والمعلومات، لا تصدر إلينا المعلومات المسموعة منها والمرئية والمقروءة، سعياً وراء المكاسب (المباشرة) حسب، إنما القصد أيضاً التأثير (effect) في الأفكار، وتخريب العقول ومحاولة اقتلاع القيم والتقاليد والعادات من جذورها، واستبدالها بقيم أخرى

وشهد عقد الثمانينات تطوراً وانتشاراً واسعاً في وسائل الإعلام، نتيجة التطورات التكنولوجية التي أحدثتها ثورة المعلوماتية (informatiqua revolution)، وهذا الانتشار الهائل قد زاد الفرد (الكوني) من نشاط التعرض لمختلف المعلومات والأفكار بحيث غرقه في حزم من المعلومات لا يستطيع اللحاق في تفسيرها وتمثيلها على وفق توازنه المعرفي إذ (يتمتع الإنسان المعاصر اليوم بفرص أكثر مما كانت متاحة له قبل (20 أو 50 أو 100) عام، وقد ارتفعت معدلات معرفة القراءة والكتابة بين البالغين من 48 % في عام 1970 الى 72 % عام 1997[1].

وقد ساعدت تلك التقنيات الحديثة وتجلياتها الى شيوع تسخير الفضاء إلكترونياً، وبالتالي الى تعميق الظاهرة التلفازية التي تجتاح العالم، فالمشكلة لا تعتمد على نيات القائمين بالاتصال، حكومات، وشركات، وأفراد فقط، أنما تعدى الأمر الحاجة

***** - الادمان التلفزيوني: مصطلح يطلق على حالة المجتمع أو الفئة أو الفرد، الذي يجعل من التلفاز الاداة الرئيسة في تناول معلوماته وقضاء اوقات الفراغ، بالشكل الذي لا يستطيع الانقطاع عنه، ويشكل هذا المنحى صناعة عوالم افتراضية خطرة جداً، على معايشته الواقع، وهذا ما اصيب به الكثير من الشباب العربي في ظل الادمان على السماع أو التعرض أو الاستخدام لبعض قنوات الميديا والموسيقى والاتصال، (الباحث) حول موضوع الادمان التلفزيوني راجع تفصيلاً:

ماري واين: الاطفال والادمان التلفزيوني، تر: عبد الفتاح الصبحي، سلسلة عالم المعرفة (247) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة 1999).

1 - محمد عبد الحميد، نظريات الاعلام واتجاهات التأثير، القاهرة، عالم الكتب، 1997، ص21.

أو الشعور بالحاجة الى التعرض الكيفي والمتواصل لقنوات متعددة الخدمات، وأن متطلبات السياسة الدولية ومتغيراتها الأيدولوجية والاقتصادية، ولد حتمية الوقوف على(ظاهرة التلفاز وآثاره)، التي بدت (حقنه جماهيرية أو مثيرات بيئية جديدة دون سابق إنذار أو توقع)[2]. حيث لم يكن المجتمع الدولي متوافقاً مع الشاشة الصغيرة على مدى العقود الماضية، مثلما يحدثه الآن من تفاعل(interaction) وتعرض (exposure)، ويعد التلفاز الأميركي– كمثال مهم– للنموذج الغربي–، ويعد من أكثر فروع الاقتصاد الرأسمالي تحقيقاً للربح، إذ يحقق الإعلان لوحده (4) مليارات من الدولارات سنوياً، ويعد الأكثر فعالية في الحياة الاجتماعية الأميركية)، كما يرى ذلك الرئيس الأسبق جيرالد فورد، وهو الأداة التي يتم من خلالها- عملية إقناع الشعب الأميركي– كما أن الشاشة التلفازية أصبحت المصدر الرئيس لعرض الصورة الأميركية الى هوليود، وبشكل عام فأن 75 % من الواردات العالمية من البرامج التلفازية تأتي من الولايات المتحدة، التي لا تستورد أيَّ أفلام أو مسلسلات إلا بنسبة 2 % من المواد التعليمية[3].

ولعل من المفيد أن نعرج على تداعيات التطور التقاني للمعلومات والإعلام، واندماجها أداة واحدة شبه مكتملة، هذه قد وضعت لأطروحات العولمة في متناول يد الشركات والسياسيين والحكومات، ذلك أن دخول المعلوماتية (informatiqua) قطاع الاتصال ادخل عليه انقلاباً تكنولوجياً كبيراً، أصبحت من جرائه الحدود الفاصلة بين مختلف الأنظمة والأجهزة باهتة جداً، أو لربما مطموسةً تماماً بعض الأحيان، (وأن تكاثر أجهزة الاتصال الحديثة مع انتشارها أصبح يندرج ضمن منطق اقتصادي، لا يعترف في أغلب الأحيان بالمقاييس الاجتماعية، التي يخضع لها مستعملو تلك التقنيات، ولا بكيفية نمو المجتمعات التي يعيشون بها)[4].

وأن تكاثر أجهزة الاتصال الحديثة مع انتشارها أصبح يندرج ضمن منطق اقتصادي، لا يعترف في أغلب الأحيان بالمقاييس الاجتماعية، التي يخضع لها مستعملو تلك التقنيات، ولا بكيفية نمو المجتمعات التي يعيشون بها

ومن خلال التحسينات التقنية لبنى الاتصال وشيوع استعمال الفضاء والحاسب واقترانهما، انتقلت الوسائل الجماهيرية الى نمط وهوية جديدة، أظهرت تسخيرها الواضح للحرب القادمة (حرب المعلوماتية information war)، أو حرب الثقافات عبر الفضاء، وهذا بدوره قد أضاف متغيرات جديدة في صناعة الرسائل الجماهيرية، تداخلت فيها كثافة واتساع الوظائف والأهداف سياسياً واقتصادياً وحضارياً[5].

2 - كامل القيم، الاتصال الفضائي المباشر والهيمنة الثقافية: دراسة في احتمالات التأثير التلفازي على المنطقة العربية والعراق بشكل خاص، جامعة بابل/كلية التربية الفنية، بحث مطبوع، ص2.

3 - سلام خطاب الناصري، الإعلام والسياسة الخارجية الأميركية، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 2000، ص 19.

4 - جوزيان جوال وسيلفي كوداري، تقنيات الاتصال الحديثة، ت صالح العسلي، منشورات اليونسكو، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1993، ص9-10.

5 - كامل حسون القيم، بناء الاتصال ومشكلات التعرض الاتصالي، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، قسم الإعلام، 2000، ص46.

وبذلك أصبحت المظلة الاتصالية أو المراهنة على تكنولوجيا الاتصال، بمثابة الخيار الاستراتيجي للبلدان المتقدمة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية في ظل العولمة، إذ تبلغ نسبة نمو الصناعات الاتصالية فيها (8 %) سنوياً، وقد اعتمدت الحكومة الأميركية فعلاً، على الخيار الاتصالي من خلال تبنيها منذ سنة 1993، على قطاع لتعزيز القدرات الاتصالية من خلال برنامج سمي (الطرق السيارة للاتصال)، اعتماداً على تطور شبكات معلوماتية عالمية تعتمد الإنترنت والهاتف والأقمار الصناعية والكومبيوتر، لإقامة آلية متكاملة لانتشار النماذج الثقافية والمعلومات[6].

وهذه الانتقال الجديد قد أوجدت المؤشرات الآتية[7]:

1 - تعمقت الهوة بين الدول الكبرى والنامية، من خلال خلق سوق ثقافي واتصالي دائم ومتعدد، عمق التبعية أو الاعتمادية على الآخر.

2 - إعاقة الاتصال الحقيقي بين الناس (فكل الناس يتخاطبون مع بعضهم البعض، ولكن لا احد يلتقي بالآخر).

3 - الاندماج الذي حصل في الوظائف، السياسية، والثقافية، والتربوية...الخ، تحت مدخل الترفيه لجذب آلية ونمط تعرض أكثر وأشد.

4 - هذا الوضع يعزز حرمان دولا وشعوبا كثيرة من المشاركة والإفادة من هذه التكنولوجيا، إذ ستزيد الفوارق الثقافية والعلمية (فجوة المعرفة) بين الطبقات الفقيرة والقروية والمنعزلة، عمن يستعملون ويملكون سبل الاتصال.

5 - انشغال مؤسسات الاتصال في الدول النامية في تبني الوافد من الرسائل، وارضاء أذواق المشاهدين من خارج حدودها الوطنية على حساب خططها وبرامجها المحلية، مما ولد ابتعاداً عن توظيف الموروثات الشعبية وانحسار الأعمال الدرامية.

تشكل اليوم وسائل الإعلام وبكل إشكالها، تحديات خطيرة إزاء رسم السياسات الوطنية والمتغيرات الديمقراطية، وكل إشكال التربية والوعي المجتمعي، بّعدها المدرسة اللحظية المتنقلة بين الإحداث والأفكار وبين المتلقي، وأداة للملاحقة الدائمة لكل إشكال التغذية السلوكية والفكرية والعاطفية، ومن هذا

تشكل اليوم وسائل الإعلام وبكل إشكالها، تحديات خطيرة إزاء رسم السياسات الوطنية والمتغيرات الديمقراطية، وكل إشكال التربية والوعي المجتمعي

6 - ينظر من هذا البرنامج في:

أ- عبد الحفيظ الفرهام، الثورة الاتصالية والواقع الثقافي الجديد، مجلة الإذاعات العربية، تونس اتحاد الإذاعات العربية، ع3، 1998، ص8.

ب-جوزيف اس ناي ووليم أي وانيز، المعلوماتية الأميركية موارد قوة المستقبل، ت شامل سرسم، مجلة شؤون سياسية، بغداد، ع6-7، س2، 1996، ص90-102.

7 - كامل حسون القيم، بناء الاتصال ومشكلات التعرض الاتصالي، م س، ص47.

المنطلق كانت المتغيرات التي انطلق بها الإعلام الفضائي أو ما يسمى (الالكتروني)، ليس فقط مجالاً أرحب للحرية في تناول وتداول المعلومات والأفكار، بل غدت أيضاً مجالاً خصباً لزرع الأفكار، التي من شأنها أنّ تضع بذرات، وأنّ تُديم البغض والعنف والثورة على منظومات اللحمة الوطنية والموروث وأمنه الثقافي والقيّمي.

ومن منطلق القوة التي تعاظمت بعد هذا التسارع وتلك الاعتمادية على وسائل الإعلام باعتبارها النافذة المفتوحة الجديدة التي ظهرت بعد الالفية الثالثة، وإذا كان للمجتمعات الأخرى قد انتظمت مع طبيعة ذلك التسارع والكثافة، فأن المجتمعات العربية لاتزال تعيش نشوة التلقي لكل ما هو مثير ومعّبر ومتجدد، سواءً أكان ذلك من قُبيل الأخبار والتقارير أو من قُبيل الأفلام والبرامج الحوارية وصور وكلمات... هذه المعطيات المتواترة تكون لها في الغالب أجندات تتراوح بين السياسة والثقافة والدعاية في رسم صور وتشكيل اتجاهات الرأي العام نحو القضايا المختلفة. فلا تزال بعض وسائل الإعلام تنظر إلى المتلقي العربي نظرة (السجين السابق)، الذي لا يتعرض الى قناته، وهي تسير بهذا الافتراض لاغيةً الفهم الحقيقي والواقعي، الذي تسير بها عمليات التعرض إلى وسائل الإعلام المختلفة، فضائية أم أخرى مسموعة أم مقروءة من وجهة النظر الخاصة، نرى من المفيد أنّ تُراجع الملفات الإعلامية بشكل شامل ومعمق، وعلى أساس تفهّم جملة من اعتبارات التغيير منها: الحتمية التقنية، وشيوع الديمقراطية وحق الإنسان بحرية تداول المعلومات وإخضاع العمل الإعلامي للسلوك العلمي الميداني وللتنمية والتحضر.

التواتر الرقمي يزاحم الهوية... ويؤرجح المواطنة

ليس من باب الصدفة أو العجب أن يبدي الكثير من أهل الفكر والتاريخ، تخوفهم مما يجري في مسرح التناغم التقني، مع سوق الاتصال والمعرفة، وكانت تلك الخشية والتوجس منذ مطلع التسعينيات، حينما بدا التنشيط الفضائي على مستوى استخدامات الانترنت والعمل بالاستهداف عبر الفضائيات، وهو جزء من تسخين مرجل العولمة المتصاعد، تلك الدعوات والصرخات كانت بطبيعة الحال، وكما تعودنا أنّ نعدها نقصاً في مؤن البدائل، وردت فعل طبيعية على كل(وبالفطرة)، على أن نجعلها بارقة المفلسين والمتآمرين على التكنلوجيا والانفتاح، كما عدت في ورقات بحثية عدة، من أنّها الهزيمة الفكرية والمعرفية للنتاج العربي، الذي أصبح في حلبة حقيقية للصراع مع الغرب المتهيء.

كانت تلك ملامح واقعية وواضحة ومترقبة من قبل أهل الفكر والتربية والقانون والسياسية، ولكن وبذات العقلية التأجيلية، قد تعاملت مؤسسات التغيير[8] الاساسية مع هذا القادم، بجملة (نحن أهل الفكر والثقافة والقيم)، وعليه كان القادم أعتى وأكثر هولاً وخشية، مما كان المتوقعون من أهل التحسب والتخطيط البسيط. على الرغم من أن هناك أطروحات ترى (انتشار التجديد لا يحصل من الخارج نحو الداخل، عدا بعض الحالات التسلطية، بل من الداخل نحو الخارج، ذلك أنه لا يقوم على سيرورة استقبال سلبي، بل على ممارسة خيال ذاتي)[9].

ومنذ ذلك الحين كان الأدب السياسي والمعرفي الحديث تداول مصطلحات لغوية، استحدث دلالتها من اشتقاقات لغوية خاصة، وقد أسهمت وسائل الأعلام إلى حد كبير، بقدراته التداولية والتبادلية (Deliberation)، على نقل وتفصيل تلك المفردات، بل تكريس استخدامها العلمي تزاوجاً مع المعطيات الثقافية الأخرى عبر- ثقافة الصورة- والشكل- والسلوك، والذي في ظل العولمة استفردت به الولايات المتحدة الأميركية، باعتباره إحدى خيارات الوصول إلى (أن يكون القرن الواحد والعشرين أميركياً).

نعم أن العالم ينفتح على بعضه، وتزداد سرعة وفورية انتقال المعلومات وتتسع السوق وتزول وتتهمش الحواجز إزاء انتقال السلع والخدمات والأشخاص والمعلومات والأفكار، ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه ما الذي يجري عولمته؟، ليس إلا ثقافة معينة بذاتها، مصحوبة بسلع وخدمات بعينها، مما يجعل مقولة (فرنسيس بيكون) (Francis Bacon) الشهيرة (المعرفة قوة) تلقي بضلالها على معترك الصراع الحضاري، إذ يرى إدوارد سعيد الخطوط العامة لهذا المعترك بالقول (أن النظام العالمي الذي ينتج الثقافة والاقتصاد والقوة السياسية جنباً إلى جنب مع (معاملاتها) العسكرية والسكانية، ليملك ميلاً لإنتاج صور عبر قومية خارجة عن القياس، تمارس الآن إعادة توجيه الإنشاء الاجتماعي والانتماء الوطني)[10].

ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه ما الذي يجري عولمته؟، ليس إلا ثقافة معينة بذاتها، مصحوبة بسلع وخدمات بعينها، مما يجعل مقولة (فرنسيس بيكون) (Francis Bacon) الشهيرة (المعرفة قوة) تلقي بضلالها على معترك الصراع الحضاري

وانطلاقاً من مبدأ التدفق الحر للمعلومات، ترى الولايات المتحدة الأميركية أن دخول السلع الثقافية الغربية إلى شعوب العالم الثالث، سيمكنها في مدة لاحقة من الاعتماد على نفسها وبلورة إنتاجها المحلي، وأن المواد الثقافية والثقافات

8 - مؤسسات التغيير: وهي المنظومة التي ترتكز على التنشئة والتغيير في البنى السلوكية وتصون الاتجاهات والمرجعيات للأفراد والمجتمعات المحلية، بالشكل الذي يتماشى مع القيم والعادات والثقافة الاسلامية والشرقية، وتكون مصدر تغذية مستدامة للفرد والمجتمع ومنها (المؤسسة التربوية، ووسائل الاعلام، والخطاب السياسي، والمؤسسة الدينية، وقادة الفكر والراي).

9 - مجموعة من المؤلفين: اشراف فرانك مرمييه : الفضاء العربي (دمشق: قدمس للتوزيع ،2003) ص15.

10 - صباح الياسين، الإعلام والعولمة، في العولمة والمستقبل العربي، بيت الحكمة، سلسلة المائدة المستديرة (37)، بغداد، 1999، ص-28 29.

عموماً، يجب أن تتنافس فيما بينها، مثلها في ذلك مثل السلع التجارية العادية في الأسواق الحرة، على أن تكون الغلبة للأصلح والأفضل، وتنطلق تلك الطروحات من الواقع السياسي والأيديولوجي والاقتصادي، الذي يحكم فكر الغرب من الهيمنة والسيطرة على الشعوب، ذلك أنّ مفهوم الهيمنة الاتصالية كما يعرفها (Boyed-Barrett،1977)، على أنها (العملية التي يخضع بموجبها نظام أو نظم الاتصال– من حيث الملكية– والبناء– والتوزيع والمضمون– لدولة معينة أو مجموعة من الدول لنفوذ وحفظ المصالح الاتصالية لدولة أخرى أو أخرى، من دون تأثير معاكس ومتوازن من الدولة التي خضعت للهيمنة)[11]، ويشير تنستال (Tunstall)، الى أن هيمنة وسائل الاتصال الأميركية تعود إلى أسباب متعلقة بطبيعة منتجاتها، والتي تنماز بانخفاض سعره وارتفاع جاذبيته، وفي الوقت نفسه قدرتها على مجاراة الأذواق الشعبية بشكل عام، الإضافة إلى القدرة الأميركية أو الانجلو– أميركية على استيعاب العملية الاتصالية–، بالأخص في مجال التلفزة، قد أدت إلى تسيد المنتوج الغربي دون سواه[12]، من خلال عامل الخبرة والاستثمار المالي الكبير، وأخطبوطية مراكز التأثير عبر العالم.

11 - محمد نجيب الصرايرة، الهيمنة الاتصالية: المفهوم والمظاهر، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، ع2، مج18، 1990، ص132

12 - المرجع السابق نفسه، ص133.

لقد أضحت التكنولوجيا- لاسيما روافدها في الإعلام والمعلومات والاتصال- معرفة، والمعرفة شكل من أشكال التكنولوجيا، فإن التساؤل في التوزيع العالمي الجديد للمعرفة، يرتكز على القوة الماسكة للنظام العالمي- القطبية الجديدة- والمهيمنة على نمط العلاقات الدولية، والتي تؤسس لتراتبية جديدة، قوامها الأساس مدى احتكام هذه الدولة (أو المجموعة) أو تلك لناصية "تكنولوجيا المعرفة"[13] (أعتدةً ومضامين)، ومدى قدرتها على بناء منظومة "للرأسمالية الرمزية"[14]، تتجاوز منظومات إنتاج الثروات المادية واللامادية، التي كانت سائدة إلى حين نهاية سبعينات القرن الماضي.

13 - يحيى اليحياوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة: مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة، دار الطليعة، بيروت، 2002.

14 - ورد هذا المصطلح كأساس تطبيقي للشعوب النامية، والتي تريد أن تركب موجة التكنولوجيا والحضارة، ليس على اساس موروثها الحضاري وقيمها، ونبهت الى التشتت المستقبلي فيما لو لم تبني لها رأسمالية رمزية، أو آفق جديد باتجاه تشكيل قوة معرفية من الرموز القابلة للتشبيك مع المعطيات الكونية الجديدة ينظر:

Vercellone. C, « La question du développement à l'âge du capitalisme cognitif », The Third World Forum, Forum du Tiers Monde, 2003.

نقلاً عن: يحى اليحياوي : العرب والتكنولوجيا والتوزيع العالمي للمعرفة (المقدمة) موقع المؤلف على شبكة الانترنت

ولما أضحت المعلومات والمعرفة مصدر القوة والسلطة، عند بواكير هذا القرن، فإن الوقوف من جديد عند الواقع المتردي لمنظومة العلم والتكنولوجيا بالوطن العربي،(لاسيما تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال)، إنما غرضه التدليل على المكانة المتدنية على مستوى بنية وإنتاج وتوزيع واستهلاك المعلومات والمعرفة. ذلك لأن التكنولوجيا انتاج معرفي واجتماعي وثقافي، يشمل الأفكار والمعتقدات والسلوك والتصورات والقيم، التي يستمدها الفرد من خلال تعامله مع الطبيعة والمجتمع، وعليه فأن التكنولوجيا قبل أنّ تكن آلة، فهي فكرة تولدت عن حاجة

أو رغبة اجتماعية في زمن محدد. وبالتالي فهي مصب عارم نحو كل ما ينتجه وما يعتقده وما يسلكه الفرد والمجتمع من نشاطات، وبذلك فالإنسان في ظل ذلك المشهد، يوسع مداركه ومن ثم سلطانه على البيئة، كما يرى ذلك (هاملتون Hamilton)، والتي حددها على أنها (الوسيلة التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يوسع نطاق سلطته على ما يحيط به)[15].

(15) ينظر: فضيل دليو: التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال: المفهوم – الاستعمالات – الافاق (عمان :دار الثقافة ،2010) ص22.

لم يفرز الواقع ذلك ولا المكانة تلك، تعميقاً للفجوة الرقمية (الملازمة للتوزيع العالمي للتكنولوجيا) المتزايدة المد بين الدول المتقدمة والبلدان العربية، بل أفرزت معها تشوهاً أعمق على مستوى بنى التنمية الإنسانية العربية (وداخل البلد الواحد)، لا يتراءى لنا من سبيل لتجسيرها وردم هوتها إلا البدء في بناء منظومة علمية وتكنولوجية دامجة لكل البلدان العربية، على أساس التكامل بين من لديه المال فقط وبين من يمتلك قدرات بشرية، ترتكن في غالبها الأعم لسلك سبيل الهجرة للخارج[16].

16 - المرجع السابق نفسه

وخلاف ذلك التردي في مجال المشاركة الحقيقية والمتكافئة في مجال شغل حيز متكافئ أو لنقل معقول، من رمزية النطاق الفضائي وحزم المعرفة، التي كان من المفترض على العرب أنّ ينتجوا ما يؤهل ردم أو تخفيف صدمة التكنولوجيا على الواقع (السبيراني) المخزي، الذي يعتري توزيع معطيات المشاركة على مستوى اللغة أو كمية المعلومات أو نوعها أو استرجاعها، فالواقع العربي يشير الى الارتفاع الهائل في استهلاك منظومة المعلومات الوافدة، بكل صنوفها (العلمية والثقافية والترفيهية والإعلامية (مصادر الأخبار)، بالإضافة الى آلية تشغيل التكنولوجيا نفسها والمتعلقة بالبرامج أو تقنيات الصناعة السمعبصريات. ومن يتفحص مخرجات التعرض الاتصالي المتزايد للمتلقي العربي للوسائل الرقمية الجديدة (ووصول بعض فئاته الى حالات الادمان)، يرى أن هناك تدفقاً تأثيرياً في مجالات عدة منها:

1 - بحكم طغيان ثقافة الصورة واحلال الرمز الصوري محل الفكرة السطرية، كان الأفق الثقافي والامتداد المعرفي لا يشير الى اتساع وعمقية الاستخدام بحكم التواتر والاستمرارية تلك، أنما يشير الى تراجع قاموسية المتلقي العربي وتربية حس النقد والتحليل واستخدام رموز الذاكرة، سواء اكانت على مستوى الاتصال الشخصي أم على مستوى مخرجات الإعلام والصحافة بشكل خاص.

2 - تدفق المزيد من القيم والسلوكيات والانماط والمعارف، والتي بحكم الوفرة

غير المسبوقة اصابت العقل العربي (بثنائية التقاطع)، على مستوى التلقي ومن ثم التبني ومن ثم التغيير، أيَّ أن ما يجري تصديره من الأخر، وبالأحرى استهلاكه، ضمن مفهوم (التعّلم أو الاستطلاع أو التعّرف)، كان قد عمل مفصل وخطوة للتناشز مع الواقع الفعلي، وما تعمله الرسائل المستقبلة من رسم واقع افتراضي متخيل. هذا الواقع الافتراضي سيزيد ويراكم الهوة وعدم القبول، بما يجري على مستوى القيم أو الهوية أو ايَّ مرجعيات يمكن لها أن تدعم(عناد التغيير). فلا زال الشباب العربي يعيش في نشوة الضياع الإعلامي وأوجد له الشرعية في ذلك، عندما كشف أنّ معامل التغيير العربية والمحلية، لم تدخل الساحة لاحتوائه أو للتعبير عن حاجاته الاتصالية المتجددة والمتفاعلة مع حتمية التقانة الكونية.

3 - لازالت قنوات الإعلام العربية تجعل من السياسة مرادف للإعلام، وبذلك انطوى الخطاب السياسي على تلميع صورة من يحكم أو يقود السلطة، سواء أكانت الانظمة القديمة أم المنحدرة من ثورات التغيير الأخيرة. فمعظم مفاصل البرامج والنشرات الاخبارية واشكال التغطية والوصلات الحوارية، تميل الى المحادثة السياسية والصراع من أجل اثبات صحة وديمقراطية الفعل السياسي، أو صحية الخلاف ومقاربات الدستور...الخ، في الوقت الذي أهملت فيه الكثير من متطلبات التغيير البرامجية التي ينتظرها الشارع العربي، وما تعلق منها في الخطاب التربوي والتنموي والسلوك الديمقراطي في الحاضنة الاجتماعية.

4 - وبحكم تربع العرب على أعلى امتلاك لوسائل إعلام، سواء أكانت الفضائية منها أم المواقع الالكترونية أم الصحف، وأن عملية التمدد والتوسع والتخصص في فتح تلك المساند الاتصالية العالية الكلفة، والمنخفضة التأثير، يحتاج الى وقفة والى تساؤل: ما دواعي عمل أكثر من 400 قناة عربية مختلفة التوجه والنية والقوة والمصدر وبكلفة تشغيلية تتجاوز (10مليار$)، ماذا نريد بتلك الترسانة الاعلامية لهذا الجيل؟، أيَّ جمهور نخاطب؟، وهناك اسئلة فرعية أخرى على الجانب الفني والابداعي لا نريد أن تأخذ حيزاً أهم من العموميات، التي نحن في صدد رصدها وتحليلها، ومن ثم استخراج اشتغالاها وجدواها.

تربع العرب على أعلى امتلاك لوسائل إعلام، سواء أكانت الفضائية منها أم المواقع الالكترونية أم الصحف، وأن عملية التمدد والتوسع والتخصص في فتح تلك المساند الاتصالية العالية الكلفة، والمنخفضة التأثير، يحتاج الى وقفة

الواقع الافتراضي بديل للمواطنة

لا احد ينكر نعمة التكنلوجيا على بني البشر، ولا احد ينكر أن بعضاً من قوة الفرد– أيَّ فرد– تأتي من كم وكيف يتعامل مع التكنلوجيا، تلك الكلمة التي اختزلت واسعدت الكثير من مفاصل ومفردات صعوبات الطبيعة ومنها التواصل الإنساني، فلا يمكن بأيَّ حال مقارنة مهارات الافراد في التحكم بالمعرفة، كما كان قبل قرون أو سنين، الماكنة تدون ويختزل معها أقراص الذاكرة الإنسانية في الخزن والانتقاء ومن ثم الاستخدام، هذا الواقع الجميل العنيف بكل مصادره، قد أوجد لنا سُبلاً شتى لفهم العالم، والتطلع الى التنبؤ على وفق حزم المعلومات المجهزة التي تمطرنا بها قنوات نقل التكنلوجيا. وكانت النزعة الانسانية تميل ومنذ القدم الى تقصي الاخبار والمعلومات، وتتساءل عن مخرجات حدوث الظواهر... وهكذا تشكلت سيرورة الانسان كائناً اتصالياً، تعينه (الرمزية اللغوية) بأشكالها، ولم تتوقف ثنائية الانسان وحب الاستطلاع ولن تتوقف، وبذلك تؤشر تقنيات التواصل على أنها الأكثر فعلاً في نتاجات الانسان المعاصر، بحكم طابع الاثر الفوري التي تنتجه، جراء فعل التواصل– في المشاهدة أو القراءة أو الاستماع– وبذلك حينما نقول أن ثمة تلاقح وتزواج غير مسبوق، قد حدث بين انسان العصر الحالي وبين تكنلوجيا الاعلام والاتصال، لسنا نغالي أم نقول ذلك من باب الوصف.

وكانت النزعة الانسانية تميل ومنذ القدم الى تقصي الاخبار والمعلومات، وتتساءل عن مخرجات حدوث الظواهر... وهكذا تشكلت سيرورة الانسان كائناً اتصالياً، تعينه (الرمزية اللغوية) بأشكالها

فعلى مدى العصور، يتشعب هذا الهوس الاجتماعي، كما يترسخ الهاجس الفردي للإنسان بتقصي المعلومات، حتى باتت اليوم في عصرنا هذا المجموعة الاكبر من(الشاشات) في حياتنا اليومية، وذلك اختصارا للزمن المتراكم لتاريخ البشرية، حيث يتفاعل كل واحد منا بعشرات الشاشات في اليوم الواحد من قبيل (الاستشارة والفحص والمشاهدة والتشغيل)، من دون أنّ يفكر أو يشعر أو يخطط، ولا علاقة للعلم أو الأمية بموضوعة سيطرة الشاشات على واقع حياتنا اليومي، فالكل يعيش على ايقاع الشاشات، من شاشة التلفاز الى شاشة الهاتف النقال والى شاشة الكومبيوتر والانترنت والسيارة وساعة اليد والاي باد وشاشات الاعلان الطرقي،...الى أخره من شاشات الانشطة الاخرى كالمصارف والطائرات والصناعة والتجارة وغيرها من مفاصل حياتنا اليومية[17].

17 - رمزي ج.النجار: وجهة نظر وسفر: الإعلام ..التواصل ..الربيع العربي (بيروت : دار النهار ، 2012) ص15.

في ظل تلك الثنائية– ثنائية وسيلة الإعلام الفرد-، كان الانسان العربي في أعلى هرم التماهي مع تلك العلاقة، ليس بحكم الصدفة أو الحاجة، أنما بحكم البيئة العربية التي اثقلها كاهل السياسة والحروب والصراعات وهول احتلالات متعددة، ومن ثم السجن المعرفي التي قادته النظم السياسية، واجبرته على متنفس أوحد، وهي قنوات السلطة وشعارتها وبطولاتها، مما افرغت تلك العلاقة من أيَّ انتماء بين المحتوى الإعلامي ومخرجات استهلاكه، ونستثني ذلك مرحلة الستينات والسبعينات من القرن المنصرم، عندما كانت القومية العربية قد ارتفع صوتها بقيادة الراحل جمال عبد الناصر، وهي لحظة أمل ارادت عندها الشعوب العربية، أن تتكأ على هوية تخرجها من الصورة النمطية التي التصقت بها، والتي روجها الإعلام الغربي والإسرائيلي عبر صنوف الإعلام المؤثر آنذاك (كالسينما، والمسرح، والكتب، والبرامج التلفازية، وافتتاحيات الصحف الكبرى في أميركا وبريطانيا)، وقد نجح الى حد كبير في رسم صورة نمطية متدنية على طريقة تفكير العرب وقدراتهم وطبائعهم نحو الأخر. وكان المد الإعلامي في أبان النشاط الستيني والسبعيني للإعلام العربي يرتكز على صراع الوجود مع اسرائيل، والاتكاء على عبور قناة السويس المصرية وانتصار العرب في حرب التحرير 1973، وقد استطاع الإعلام العربي الى حد كبير من أنّ يطيح بشعور الاستكانة، وفقدان الأمل الذي كان يلف الجماهير العربية بعد النكسة، ومتغيرات الحرب الباردة التي كانت رحاها تدور بين الروس والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. عند ذلك تراوح تأثير وسائل الاعلام العربية على متغير المواطنة، باعتباره ليس القيمة الحقيقية للمواطن، بقدر ما كان الحاكم أو القائد والذي بأذياله سترتبط المواطنة، هذا الارتباط العجيب الذي حكم العرب ومواطنتهم وانتمائهم على الاقل في حدود الحاضنة السياسية والشؤون العامة، بدأت ملامحه تظهر حينما اكتشفت بعض الشعوب العربية انها كانت تعيش فكر الاساطير وميثولوجيا عقيمة، وأنها خطابات الزعماء والاحزاب والمصلحين ومن يتربع عن عرش التأثير كانوا مجرد دعاة وحماة لأشخاص ولظرف، وأنّ ماضي الجهد الاعلامي ليس مواطنياً بامتياز، ولا يتعلق بثقافة وهوية وتنمية شعب، بقدر ما اعلام يبرر بقاء الحكام وترسانتهم السياسية، كما كان ذلك في العراق، وليبيا وتونس ومصر ودول الخليج وبلدان أخرى.

وأنّ ماضي الجهد الاعلامي ليس مواطنياً بامتياز، ولا يتعلق بثقافة وهوية وتنمية شعب، بقدر ما اعلام يبرر بقاء الحكام وترسانتهم السياسية، كما كان ذلك في العراق، وليبيا وتونس ومصر ودول الخليج وبلدان أخرى.

وعلى الرغم من المواطنة والهوية مصطلحان غير ممسوكان للقياس والمناقشة، في ظل مجتمعات ساكنة وغير متغيره، إلا أنهما يكشفان عن نفسيهما، في حالات التغيير أو الانتقالات الكبرى كتغيير بنية النظام، أو الانتفاضات الشعبية أو الدراسات الميدانية الكبرى، وترتبط المواطنة والهوية الوطنية بمؤشرات لطبيعة النظام السياسي وهيكل عمله من معايير الحكم الصالح، هذا الأخير ينتج لنا بالضرورة حزمة من منشطات تدعم المواطنة وتصونها وتجذرها وجدانياً وإدراكياً، ولو عدنا الى معايير الحكم الصالح نراها ربما بعيدة أو على الأقل بعضا منها، يقترب الى الاستحالة في حالة تراكم من يحكم، في ظل نظم سياسية، عرفت كيف تبرر بقاءها، على أنها سلطات انقاذ أو رجال مرحلة، ومن تلك المعايير للحكم الصالح[18]:

- وجود شرعية للسلطة نابعة من سلطة الشعب.
- وجود المواطنين في قلب عملية صنع القرار.
- وجود براج مركزها المجتمع وتقوم على الإصغاء للمواطنين.
- التكيف السريع من قبل الإدارة العامة مع حاجات المواطنين في تحديد التمويل العام واتجاهات إنفاقه. وقد تم استنباط من هذه المقومات الأساسية الأربع معايير تشكل مؤشرات على صالحية الحكم، وتتوزع هذه المعايير بين معايير سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية، ومن أمثلة هذه المعايير: سيادة القانون- تحقيق حاجات الجمهور- المساواة- المصلحة العامة- حسن الاستجابة- الرؤية الاستراتيجية- المشاركة- الفصل المتوازن للقوة بين السلطات.

ولكن المشهد العام في ظل تلك المعايير، ينبئنا بأنّ العلاقة بين الإعلام وبين محددات الحكم الصالح، وبالتالي الديمقراطيات الناشئة والواثقة لا يمكن أن تُبنى إلا في ظل خسائر جسيمة من قبيل الزمن والتناحر، وضياعات الهدف، والتخبط في ايجاد رؤية حقيقية لما يريده الطرفان– الحكومات والرأي العام– فالإعلام بمؤسساته وعقلياته المنسلخة في الأغلب الأعم من تقاليد صحافة السبعينيات والثمانينيات، أبقت لنفسها ملامح قوة المركز– والمركز هنا– من يحمل القرار والسلطة، متناسية الكم الهائل من التأثير في ميادين سوق الاتصال والمعلوماتية، التي يساهم بها الرأي العام بعدما أتاحت له التكنلوجيا، إنّ يحرر ويساهم وينتج كما لو كان مؤسسة بحد ذاتها.

18 - ينظر تفصيلاً في :

كامل القيّم: وسائل الاعلام والهوية الوطنية :في كتاب المواطنة والهوية العراقية عصف احتلال ومسارات تحكم، المؤتمر الثالث لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع،2011) ص ص -211 2014

إنَّ المشكلة الكبرى في الإعلام العربي لا تتجلى فقط في مهارات المسح الاجتماعي والدولي والاقليمي للشؤون العامة (خرائط الانتقاء)، بل والأخطر هو الجمود في التماهي مع متلقي نشط وعنيد ومتمكن الكترونياً، وبالتالي كانت حدود التأثير باهتة وضعيفة، ليس على مستوى التثوير أو نقل الأحداث أو استخدام رموز التحريك للشارع العربي، بل نتحدث عن استحكامات وبلورة فكر جديد وتنظيف جديد، من الممكن للإعلام بمؤسساته العربية أنّ يوضح الصورة، ويرسم حدود واضحة للهوية الجديدة، لشباب ينشدون الخير والتغيير في بنى السياسة والاقتصاد والثقافة.

والفشل الإعلامي في اللحظة التاريخية الكبرى التي نعول عليها، قد يقود العرب الى مزيد من التيه، بدأ من الهوية وأنتهاءً بتأرجح المواطنة، بعد أنّ يهرب وتهرب منه وسائل الإعلام، كونها من دون فحوى أو مضمون يعصف بالمتلقي بعد التغيير، والمشهد الذي نتأمل منه أنقلاباً في مستوى الفكر والتوجه والاساليب والنظريات وطرق الاستمالة المختلفة، حتى يمكن لها أنّ تكون بمستوى ميادين التحرير الذي رسم للشباب العربي أفق جديد وهوى جديد، إساسه الاحساس بالانا المجتمعية وليس السياسية.

والفشل الإعلامي في اللحظة التاريخية الكبرى التي نعول عليها، قد يقود العرب الى مزيد من التيه، بدأ من الهوية وأنتهاءً بتأرجح المواطنة

أن الانقلاب الكبير الذي حصل في طاقات الشباب العربي والذي سيحصل بالضرورة، لا يمكن أن يُطفأ أو يذوب في متاهات السياسات وتشكيلاتها ومشكلاتها، وبالتالي يمكن أن تفلت منا تلك الجذوة الرائعة، التي غدت فرصة كبرى لتوحيد النفوس، وللإشعال منار المواطنة على أعلى مرتفع، والمواطنة هنا ليست بالضرورة تلك (للوطن- القطر)، بقدر ما تكون للواقع الشامل لأزمة العرب مع الدور والهوية والواقع والمستقبل، هل يمكن للإعلام أن يكون جارفاً لبلورة هوية جديدة للشباب العربي، هل للمواطنة المتجزئة أن تصنع مشتركات كبرى، أبطالها(أحداث التغيير، الإعلام، تغيير النظم السياسية، إعادة النظر في خريطة التفكير مع مشكلات العرب الكبرى).

هل نحن إزاء هوية جديدة ومواطنة تسمو على الاثنية، والمناطقية، والحزبية، واسقاطات التاريخ؟ هل سيغدوا التاريخ مشكلة أم حل؟، هل نستطيع الاحتفال بعرس جديد لبطل جديد اساسه واقع المواطنة المنظم، والهوية المتخمة

بالفعل– كما فعلت أوربا– هل نستغل الفرصة لإعادة أعمار العقل والتوجه والتربية وتشكيل الصورة الذهنية المنتجة، على حساب طغيان– صورة النمط المتعثر–، تلك التساؤلات الكبرى تلقي بظلالها على طاولة واقع ينتظر مستقبل نحن إعلامياً نتخوف منه.

وعليه ومن أجل تنظيم المدخل الاتصالي الفضائي للعرب، بشرعية علمية تديم وتدعم وتصنع يافطة جديدة، للتأثير على دواخل افراده، وعلى مساحات الرأي العام الدولي، يتطلب الأمر الآتي:

1 - تأسيس مجلس عربي للإعلام يعيد تنظيم وتوجيه المضمون الإعلامي العربي، بما ينسجم مع المتغيرات التي عصفت بالشارع العربي، يكون اساسه رسم استراتيجيات الواقع العربي وأولوياته إعلامياً على إساس(المواطنة، والذات الثقافية)، نظام مراقبة للشأن الإعلامي العربي، وإقرار برتوكول أخلاقي للقنوات الفاعلة والعالية التأثير، في نبذ التحريض والانا الدينية والمذهبية والاخلاقية التي يعج بها الفضاء العربي.

2 - على الحكومات التي تكونت بالطقس الديمقراطي، إنّ تتصالح مع وسائل الإعلام وتعترف(تشريعياً) بدورها الجديد في تنوير الرأي العام، واحقاق مسؤوليته في الكشف والمساءلة والتقصي، في مزالق الزلل والفساد والتعسف ومراقبة السلطات الثلاث.

3 - إلزام المؤسسات الاعلامية (الممولة والمملوكة) من شخصيات أم أحزاب أجنبية أم عربية، على اعطاء حصة برامجية لمتغير(الهوية والمواطنة والتربية الديمقراطية وحقوق الانسان والطفل والمرأة)، كونها عِماد التغيير وبوصلة صحية المجتمعات الناشدة للتحضر والمجتمع المدني.

4 - انشاء مراكز ابحاث وطنية أو عربية تقوم بتحليل ورصد الظواهر الإعلامية والمهارات وبنية التلقي الإعلامي، والتزود بترسانة من المؤشرات، التي من الممكن أنّ تعّدل مسار العلاقة بين المجتمعات العربية والإعلام المحلي أو الوافد.

5 - اعادة النظر في مناهج تدريس الإعلام والسياسة والاقتصاد بشكل جذري، بالشكل الذي يتماشى مع متطلبات العصر وفروضه الالكترونية والنزعة الى الكونية العلمية.

6 - رسم خارطة طريق عربية لإعلام الطفل العربي، تحت مظلة تكنلوجيا المعلومات والاستقبال الرقمي، وتواتر حزم الأفلام والمسلسلات والأغاني والبرامج التي تثير ما تثير من ضرر ثقافي ونفسي واجتماعي.

7 - فضح ومعاقبة الفضائيات وقنوات الإعلام الأخرى، التي تزحف ضد تيار الوحدة الوطنية، والتجديد، والعمل على حجبها، بّعدها أداة تخريب وتسميم ثقافي للمواطن العربي والاسلامي.

8 - استغلال الفضاء ونعمته وتقنياته في تعديل صورة العرب والمسلمين، من خلال العمل على ترميز خطاب دولي، يليق بدور العرب كأمة محبة وسلام وتحضر، مما يجعل الصورة النمطية التي تبنتها اسرائيل والدول الغربية طوال العقود الماضية، هشة وغير واقعية.◆